٢٢

نظرية المعرفة وفقاً لرؤية الفيلسوف لوك

ا.م.د. ثناء عبد الودود عبد الحافظ الشمري

م.د.ميادة فاضل أحمد

الملخص

في لكل بحث منهجي وعلمي قاعدتان رئيسيتان ينبغي توافرها هما: التحليل والتركيب، يتلازمان معا في تنظيم واتساق جنبا الى جنب مع العامل التاريخي للمرحلة التي تنهض عليها الدراسة وفقاً لنظرية المعرفة الفيلسوف الانجليزي جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م), وفي التحليل نتوصل الى العناصر الاساسية لمواقف لوك التجريبي الذي استند اليه في بناء نظرية متكاملة في المعرفة، وفي التركيب حال اخرى تعتمد التدرج من البسيط الى ما هو اكثر تعقيداً, وعليه يشمل البحث على ثلاث مباحث رئيسية هي:-

المبحث الاول:- قدمت فيه حياة الفيلسوف واهم مصنفاته الفلسفية الاساسية التي ظهرت في مؤلفاته، ثم كان المبحث الثاني توضيح لنظرية المعرفة لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني:- تناولت فيه اثر الفلسفة اليونانية في نظرية المعرفة والافكار التي استمد لوم منها اراءه.

المبحث الثالث:- في هذا المبحث بينت فيه رفض لوك للأفكار الفطرية والحجج التي استند اليها، ثم نقده للفلاسفة العقليين.

المبحث الاول

حياة جون لوك ونظرية المعرفة لغة واصطلاحا

المقصد الاول: حياة الفيلسوف واهم مؤلفاته

المقصد الثاني: نظرية المعرفة لغة واصطلاحا

المقصد الاول

حياة جون لوك

ولد جون لوك في قرية سومرمت Somerest في ٢٩ اغسطس عام ١٦٣٢، ونشأ في انجلترا على المذهب البروتستانتي التطهري Puritanism، كان ابوه محاميا اشترك في صفوف الالمان حين اندلعت الحرب الاهلية ولم يكن الابن الاصغر لوك يتجاوز العاشرة من عمره، فكانت البيئة التي نشأ فيها من اكبر العوامل التي ادت الى تفتح ذهنه على بعض الافكار السياسية السائدة في ذلك الوقت وتوجيه نضر الى الاشتغال بالسياسة فيما بعد[١].

وفي عام ١٦٤٦ بعد ان اكمل دراسته الابتدائية، دخل الى مدرسة وستمنستر لتلقي تعليمه الثانوي، وكان في هذه المرحلة شـــغوفا بقراءة الكتب الادبية والتاريخية ومن الدروس المهمة التي اعطيت له في هذه الفترة تتلخص في القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين اليونانية واللاتينية[٢].

كما انه انتقد النظام القاســي الذي كان يســود المدارس الانجليزية وحاول ان يضــع له اســس جديدة لتربية تقوم على شــيء من الحرية والمرونة، كما خاب ظنة حين التحق بجامعة اكسفورد لدراسة الفلسفة فقد وجد فيها خليطا من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الارسطية التي كانت ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة[٣].

استمر في دراسته في اكسفورد مدة اربع سنوات حصل بعدها على درجة البكالوريوس عام ١٦٥٦، ثم واصل دراسته لمدة سنتين بعدها حصل على شهادة الماجستير، وفي عام ١٦٥٨ عين محاضرا في جامعة اكسفورد لتدريس الفلسفة اليونانية[٤].

وقد اســتمر في متابعة دراســته للمنطق الارســطي وللمتافيزيقا وخلال تلك الاثناء اجتذبت العلوم الطبيعية انتباهه، ذلك الاهتمام كان من خلال صــداقته لأكبر علماء عصره منهم من اسحق نيوتن وبويل، كما بذل جهدا كبيرا في دراسة الطب واستطاع ان يحصـل على درجة علمية من اكسـفورد عام ١٦٧٥ كانت تؤهله لممارسـة الطب علميا الا انه لم يشتغل به مهنة اساسية ولا بطريقة منتظمة او دائميه[٥].

ويبدو ان مهارة لوك الطبية قد وطدت علاقته بلورد شــافتســبري الذي كان من اكبر الشــخصــيات الســياســية في انجلترا اثناء حكم شــارك الثاني، ثم التحق بخدمته عام ١٦٦٧ وظل صــــديقه وامين ســــره، وكان من نتيجة ارتباطه به ان زاد حماس لوك وحبه للحرية الى ان اتهم شافتسبري بالخيانة فهاجر الى هولندا عام ١٦٨٣[٦].

الا ان الهرب لم يحقق له الهدوء والاســـتقرار خاصـــة بعد ان وضـــعت الحكومة الانجليزية اسـمه في القائمة السـوداء وطلبت تسـليمه او طرده فاضـطر الى التخفي لكن هذا التخفي لم يتم طويلا لان اصـــدقاءه في انجلترا طلبوا عفو الملك جيمس الثاني عنه الذي وافق فعلا لان الدفاع عن الحرية ليس جريمة لكن لوك رفض العفو

وفضل البقاء في هولندا حتى يتمكن من مواصلة كتاباته التي لم يكن قد ظهر شيء حتى ذلك الوقت والذي كان قد بلغ فيه الرابعة والخمسين من عمره(٧).

وبعد قيام ثورة ١٦٦٨ التي اطاحت بجيمس الثاني واعتلاء وليام اورانج عرش انجلترا، عام لوك الى وطنه عام ١٦٨٩، وظل متنقلا بين عدة وظائف في الادارة المدينة ولكن صحته لم تسمح له بمواصلة العمل، ففضل الاعتكاف والاقامة بصفة دائمة مع اسرة ماشام حيث توفي عام ٢٧٠٤م(٨).

مؤلفاته:-

كانت حياة لوك حافله بالنشـــاط العلمي، وتعتبر الفترة من عام ١٦٨٣ الى وفاته ١٧٠٤ شـاهدا على اعماله الفلسـفية العظيمة التي جعلته يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الفكر الانساني، ولم يقتصر كتابات لوك على المسائل الفلسفية فحسب بل خاض في كل المجالات كالسياسة والاقتصاد والتربية واللاهوت على وجه الخصوص من اعظم مأثر العقل البشري(٩).

في الفلسفة وضع لوك خلاصة فكرة الفلسفي في كتابه الشهير مقالة في الفهم الانساني عام ١٦٩٠ استغرق حوالي تسع عشرة عاما في تأليفه، والكتاب مقسم الى اربع مقالات، الاولى في الرد على نظرية الافكار الفطرية، والثانية في تقسيم الافكار الى بسيطة ومركبة وبيان اصلها التجريبي، والمقالة الثالثة في اللغة والوجود، والمقالة الرابعة والاخيرة في المعرفة(١٠).

وفي المجال الساسي يقدم لوك خطابا في التسامح A Letter on Toleration عام ١٩٨٩، ورسـالتين عن الحكومة Tow treatises of Governmen عام ١٦٩٠، وكذلك الخطاب الرابع عن التسامح الذي نشر بعد وفاته، وايضا كتابه السياسي عن الدســـاتير الاســـاســـية في كارولينا الذي كتبه عام ١٩٧٣ اثناء عمله كســـكرتير لشافتسبري، لكنه لم ينشره الا عام ١٧٠٦(١١).

ولديه مقالتين في الحكومة المدنية وقد بدا بكتابتهما بعد ظهور كتاب فليمر Patriararcha عام ١٦٨٠ وانتهى منهما عام ١٦٩٠، وكان يهدف من ورانهما الى تثبيت فكرته الاســـاســـية في الحرية الفردية، وقد افرد المقالة الاولى لمهاجمة المبدأ النظري الذي نادى به روبرت فليمر من قبل في كتابه الأبوة والذي كان ســـائدا في

اوربا في عصـــورها الوســـطى وهو حق الملوك المقدس الذي يعطي للملك الحق في حكم رعاياه حكما مطلقا استبداديا دون ان يكون لأي فرد من افراد الشعب الحق في ان يعارض او يثور ضده(١٢).

وقد امتازت مؤلفات ورســـائل لوك بمهاجمة المتمســـكين بالتقاليد والمعتقدات الدينية الموروثة، والمطالبة بضـــرورة تحرر العقل في معالجة الامور وتكوين الاحكام والبحث في المعرفة عن اسسها التجريبية او الحسية(١٣).

المقصد الثاني

مفهوم نظرية المعرفة لغة واصطلاحا

نظرية المعرفة لغة (الابســـتمولوجيا) كلمة مؤلفة من جميع كلمتين يونانيتين Episteme بمعنى علم و Logos بمعنى حديث، علم نقد، دراسة، فهي اذا دراسة، فهي اذا دراســـة العلوم النقدية وتعتبر نظرية المعرفة احد فروع الفلســـفة الذي يدرس طبيعة ومنظور الفلسـفة، المصـطلح بحد ذاته (ابسـتمولوجيا) يعتقد ان صـاغه هو الفيلسوف جيمس فريدريك فيرير (١٨٠٨-١٨٦٤)، اما المعنى المعاصـر لمصـطلح ابســتمولوجيا في الفلســفة العربية والفرنســية فهو الدراســة النقدية للمعرفة العلمية، ويعرفها لالاند في معجمه الفلســـفي بانها العلوم وهي بهذا تختلف عن علم مناهج العلوم (ميثودولوجيا) لان الابسـتمولوجيا تدرس بشـكل نقدي مبادئ كافة انواع العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد اصلها المنطقي وبيان قيمتها(١٤).

اما نظرية المعرفة اصـطلاحا فهي البحث في طبيعة المعرفة واصـلها وقيمتها ووســائلها وحدودها، وهي غير الســيكولوجيا التي تقتصــر على وصــف العمليات العقلية، وغير المنطق الذي يقتصــر على صــياغة القواعد المتعلقة بتطبيق المبادئ العامة دون البحث في اصـــلها وقيمتها، وان نظرية المعرفة قســـم من علم النفس النظري الذي يصعب فيه الاستغناء عن علم ما بعد الطبيعة الان غرضة البحث عم المبادئ التي يفترضـــها الفكر متقدمة على الفكر نفســـه اي ان نظرية المعرفة هي البحث في المشـكلات الفلسـفية الناشـئة عن العلاقة بين الذات المدرك والموضـوع المدرك، او بين العارف والمعروف، واقدم صـور هذه النظرية هو بحث الفلاسفة عن درجة التشـابه بين التصـور الذهني والشـيء الخارجي لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما،

واحدث صـــورها تلك التي تبحث في طبيعة الذات المدركة لمعرفة الاثر الذي تتركه هذه الذات في تصـور الشـي الخارجي، ولكن هذه الصـورة ترجع الى البحث في قيمة العلم اي في قيمة التصور والتصدق[١٥].

المبحث الثاني

اصول المعرفة

المقصد الاول: دور الحس في المعرفة

المقصد الثاني: دور العقل في المعرفة

المقصد الاول

دور الحس في المعرفة (ارسطو، التجريبيون الرواقيون)

تعلم لوك في السـنين المبكرة من حياته مبادئ الفلسـفة اليونانية ودرس تراث اشـهر فلاسـفتها لاسـيما افلاطون وارسـطو، بالرغم من الانتقادات التي وجهها لهم الا ان لهؤلاء الفلاسفة اثر واضحا في التصورات والمفاهيم الفلسفية ومن هذه المفاهيم:-

اولا: الاحساس

ثانيا: التجربة او الخبرة

ثالثا: التفكير او التأمل

ومن اشـهر من جعل الحس مصـدرا اسـاسـيا للمعرفة هو ارسـطو في كتاب النفس الذي يعبر عن افكاره في دراسة الاحساس ووظائفه، حيث اهتم ارسطو بدراسة النفس الانســـانية كونها ذات طبيعة متجانس لا تتجزأ ولكن لها قوى وقدرات مختلفة هذه القوى هي: القوى الغاذية، القوى الحاسة، الحواس الباطنة[١٦].

واوضح ارسطو ان عملية الادراك الحسي تنشأ نتيجة لانفعال الحواس اي انفعال كل حاسة على حده، والحاسة لا تنفعل الا بصورة محسوسة[١٧].

وقد اكد لوك في مقالته على وجود مصدرين للمعرفة هما: حواسنا التي جعلها الادارة التي تمدنا بالمعلومات والمواضـــيع الجزئية، وتعمل على ايصـــالها الى العقل وهي في الوقت نفسـه ادراك متميز وواضـح للأشـياء تبعا للمواضـيع المختلفة وتنوع مواضـيع الاحسـاس، ويرى ان الاحسـاسـات مصـدر مهم لحصـولنا على الافكار، فالإحساس هو الوسيلة التي يعتمد عليها الذهن في تكوين الافكار[١٨].

تم تأثير ارسطو واضح في الفكرة القائلة بأهمية الاحساسات الخارجية والداخلية فهي عند ارسطو ما يسمى بالحس المشترك(١٩).

واشار لوك الى هذه الفكرة وعبر عنها عندما اكد على اهمية الحواس جميعها في عملية الادراك الحسي، فأفكارنا التي تتكون في العقل مثل افكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون تنشأ عن حاستي البصر واللمس(٢٠).

ان هذا التخصص للحواس قد ادى عند كلا الفيلسوفين الى تخصيص في الافكار ايضا، وقد عد الاحساس الاساس في تكوين الافكار بكل انواعها الا ان هذا معناه ان الخبرة الحسية هي وحدها الاساس في تكوين الافكار بل انما هي مرحلة اولى وتتمثل هذه المرحلة بانها تؤدي الى تعيين الافكار الناتجة من الحواس(٢١).

جاءت بعد ارسطو مدرستان في تاريخ الفكر الفلسفي باسم الابيقورية والرواقية، ففي المعرفة كانت الابيقورية تأخذ بالإدراك الحسي كوسيلة اساسية في بناء المعرفة، حيث كانت ترى ان كل احساس او ادراك حسي صادق لا يمكن الشك فيه، ويرى ابيقور ان الاحساس هو اساس المعرفة(٢٢).

اما الفلسفة الرواقية فقد سارت على الاخذ بالحواس بالمثل القائل "لا شيء في الذهن ما لم يكن من قبل في الحس"، فكان الاحساس بذلك بعد اول مرتبة من مراتب الحصول على المعرفة، وقد ظهر تأثيرهم على المقالة في ان لوك اخذ بالمبدأ الرئيس لديهم في كون الاحساس مصدرا رئيسيا للحصول على المعرفة(٢٣).

المقصد الثاني

دور العقل في المعرفة (افلاطون، ارسطو وتلامذته)

يعد مفهوم العقل من المفاهيم الفلسفية الرئيسية في مناهج الفلاسفة وراء بعض المذاهب الفلسفية والذي اصبح فيما بعد من المفاهيم المهمة التي وردت في نظرية المعرفة عند لوك، حيث اظهر فيها دور العقل والقدرات التي يتمتع بها في بناء اسس المعرفة الحقيقة ، ولم يكن لوك اول من تناول تحليل العقل الانساني من زاوية المعرفة بل سبقه في ذلك كبار فلاسفة اليونان، حيث اظهر كل منهم اراءه الخاصة فيما يتعلق بأهمية العقل الانساني في الوصول الى المعرفة الحقيقية(٢٤).

ويعد افلاطون اول من تناول تحليل العقل الانساني وهو يمثل محاولة فلسفية للتوفيق بين هيراقليطس وبارمنيدس بين التغير والثبات، وكانت غاية افلاطون تحليل دور العقل والحس في المعرفة وسعي الى ان يصل الى تعريف لكلمة معرفة ووردت في المحاورة مفاهيم العقل والادراك الحسي في اكثر منة مكان حتى تجلى رايه في وضع حد فاصل بين وظيفته كل منهما، فكان يرى ان المعرفة الحسية او الادراك الحسي ليس جديرا باعتبار معرفة صحيحة لأنه عملية يرتبط فيها الموضوع مع الحس وكلا الموضوعين يتغيران باستمرار، اما المعرفة العقلية فهي الاجدر في بناء المعرفة(٢٥).

ويؤكد افلاطون على قدرة العقل في الوصول الى المعرفة الحقيقة " ان العقل وحده الذي في استطاعته ان يبلغ الوجود ولا نستطيع بلوغ المعرفة اذا لم نستطع ان نبلغ الوجود، فقوام المعرفة هو التأمل لا الا انطباعات الحسية" (٢٦).

وفي محاورة الجمهورية يبدو واضحا الاهمية التي يحصصها افلاطون للعقل وتفضيله للقوة العقلية على سائر قوى النفس الانسانية، واستعان لتوضيح ما ذهب اليه من ان المعرفة العقلية ارفع مقاما في سلم المعرفة من المعرفة الحسية(٢٧).

حيث قسم العقل الى نوعين هما: العقل الخالص وقوة الفهم(٢٨).

وقد ذهب افلاطون الى ابعد من ذلك في سلم التجريد فاذا كان الاستدلال موضوع المعرفة العقلية فان ادراك المثل شرط اساسي لمعرفة اليقين ولا تكون مبادئ الاستدلال الا نقاط ارتكاز ينطلق فيها العقل باتجاه ادراك المثل الخالدة، فالعقل الخالص هو الافكار الخالصة وطريقته هي الديالكتيك اي الجدل(٢٩).

اما ارسطو فكان اهتمامه بالعقل لا يقل شانا عن افلاطون فقد قسم النفس الى ثلاثة اقسام اظهر فيها اهمية العقل وبين انه قوة مستقلة ومتميزة عن الاحساس وله قدراته الخاصة ونشاطه الفعال في بناء المعرفة، فالذهن الانساني مؤلف من مجموعة من الملكات والقوى تتمثل بالفكر الاستدلالي والحدس وطبيعة العقل تشبه طبيعة الاحساس، فكلما تتأثر الحواس بالصور الحسية فكذلك يتأثر العقل بالصور العقلية المجردة (٣٠).

وفي كتابه النفس يقرر ارسطو ان العقل " مثل لوح ليس فيه كتابه بالفعل" اي ان للعقل قوة تجعله قادرا على اتمام عمل الحواس وتكون هذه عن طريق قوة قابلة لتلقي جميع المحسوسات، وقوة فعالة تستخلص المعاني الكلية من الجزئيات. فالعقل قوة او قابلية وتصبح حقيقة فقط من خلال نشاط التفكير اي ان عمل العقل يكون متمما للإدراك الحسي ويكون ذلك بواسطة فاعليته، ويمكن القول بان ارسطو اهتم بالعقل لإدراكه ان بناء المعرفة لا يمكن ان يتم من غير قيام الذهن الانساني بدوره (٣١).

اما المدارس الفلسفية التي جاءت بعد ارسطو (كالأبيقورية والرواقية) انكرت ما ذهب اليه افلاطون من كون الادراك الحسي لا يمثل المعرفة الحقيقية، وانتهى الابيقوريون الى ان الاشياء الجزئية التي تصل عن طريق الحواس هي وحدها الحقيقية، اما افكارنا فما هي الا سلسلة من الادراكات الحسية التي جاءت الينا من الاشياء الخارجية، واما عمل العقل فهو تكوين الافكار التي تحدث نتيجة لانطباع الصور الحسية في الذهن، عملية الافكار هذه والاحكام تسمى عند الابيقوريين "التصور" وهو خلاصة تجمع الادراكات الحسية المختلفة الخاصة بشيء واحد تصوره وباجتماع جملة تصورات يكون الحكم ويقصد به المعرفة التي تحصل بعد سلسلة مترابطة من العمليات الذهنية الحاصلة بعد عملية الادراك الحسي وتكون هذه المعرفة معرفة باطنية(٣٢).

المبحث الثالث

موقف لوك من الفلاسفة في عصره

المقصد الاول: نقد لوك للأفكار الفطرية

المقصد الثاني: نقد لوك للفلاسفة العقليين

المقصد الاول

نقد لوك للأفكار الفطرية

احتلت مسألة الافكار الفطرية السابقة على التجربة مكانا كبيرا في المحاضرات والمناقشات الفلسفية واثارت جدلا طويلا بين اكبر مذهبين عرفا في القرن السابع عشر وشكلت جزءاً اساسيا من مقالة لوك في نظرية المعرفة نفسها(٣٣).

القسم الاول من المقالة يمثل نقد لوك لهذه الافكار ورفضه ان تكون هي الاساس في النظام الفلسفي الذي اراد بناء نظرية المعرفة، فابتدأ باستعراض مختلف الحجج والبراهين لأثبات صحتها مبتدأ بحجة الاجماع فيقول "ليس هناك شيء مسلم به اكثر من القول بوجود مبادئ معينة متفق عليها من جميع افراد الناس. وهم لهذا يزعمون انها لا بد ان تكون انطباعات دائمة تلقتها ارواح الناس واحضرتها معها الى هذا العالم" (٣٤).

كانت هذه الحجة براي لوك تمثل الحجة الاساسية التي يرتكز عليها دعاة هذه المبادئ ويتخذونها دليلا قويا وثابتا للتأكيد على فطريتها فهي تخطى بموافقة الجنس البشري لأنها تتصف بالشمول والضرورة، بالاستناد الى اعتقادهم ان العقل الانساني الذي يمتلك هذه الافكار هو ملكة موجود عند كل الناس بالتساوي من حيث هو قادر على التمييز بين الصواب والخطأ، وان بإمكانه ان يصل الى الحقيقة واليقين المطلق بواسطة النور الحقيقي والحدس الفطري الذي يمتاز به(٣٥).

يرفض لوك هذه الحجة فليست هناك افكار يتفق عليها كل الناس ويجمعون على صحتها(٣٦).

هذه الحجة براي لوك ضعيفة لا تستند الى دليل منطقي او برهان يثبت بانها موجودة عند البشر جميعا وذلك بقولة " ان هذه المبادئ مجهولة مجموعات من الجنس البشري وتمثل هذا المجموعات الاطفال والمجانين وبعض القبائل المتوحشة، وهؤلاء ليس لديهم اقل درجة من الادراك او الوعي لهذه الافكار (٣٧).

الحجة الثانية التي رفضها لوك هي ايضا من الحجج التي استند عليها دعة المعرفة الفطرية الذين يزعمون " ان جميع الناس يعرفون هذه المبادئ ويوافقون عليها حتى يبدوان في استخدام العقل وهذا وحده كاف لأثبات فطريتها في نظرهم"(٣٨).

الا ان لوك يرد عليهم قائل " ان هذا يعني احد الامرين: حالما يبدا الانسان باستخدام عقلة فان هذه الانطباعات المفروض فطريتها تظهر فيعرفها العقل

ويلحظ وجودها، او ان استخدام عقولهم يساعدهم على اكتشاف هذه المبادئ المعروفة معرفة اكيده لديهم"(٣٩).

يرفض لوك كلا الفرضتين " لان عقل الانسان لا يكتشف هذه المبادئ، وحتى لو كان كذلك فهذا لا يثبت فطريتها".

ويستنتج لوك ان هذه الحجج والادعاءات هي حجج مضلله للفكر الانساني لأنها غير موجودة في العقل بتاتا، لأننا لو تساءلنا كم يمضي من العمر العقلي لدى الانسان بدون ان يكون لديه اقل درجة من التفكير والادراك لهذه المبادئ وبعض القضايا المنطقية، وان هناك العديد من الناس لا يستطيعون التثبت من الحقائق العامة والاكثر تجريدا حتى بعد استعمال العقل، ولذلك يسعى لوك الى اثبات وجود علاقة يشير اليها بقولة: "ان هناك تلازما بين نمو الانسان وبين تطور القدرة العقلية عنده " هذا التلازم يكون في البداية صورة بسيطة ولكنه بالتدريج يصبح اكثر فعالية ونشاطا، فالأطفال لا يتعلمون الافكار العامة بصورة مفاجئة، وكذلك الاسماء التي ترمز اليها، وانما يكون تعلم الافكار الجزئية في بداية الامر مقترنا بتلك الافكار اكثر تشابها، ثم يصل العقل الى مرحلة متقدمة من تعلم واكتساب المعرف(٤٠).

وضع لوك تصور فلسفيا للأسس التي يقوم عليها بناء المعرفة وهذا يشمل في دراسة للأفكار Ideas التي جعلها المدخل الرئيس للمقالة بعد رفض المبادئ الفطرية، فكان مفهوم الذهن الانساني من المفاهيم الاساسية التي اهتم بها لانه كان يعتقد في دراسته لها ستقود الى معرفة جوهر العلمية الفكرية والذهنية لدى الانسان ، فالفكرة Ideas هي موضوع العقل اثناء التفكير او هي كل ما يمكن ان يقوم في ذهن الانسان اثناء عملية التفكير، بمعنى انها هي مادته(٤١).

اعتقد لوك ان اي فكرة تتولد في الذهن انا ترد الى مصدر واحد فقط هو التجربة او الخبرة Experience(٤٢).

وتكون الافكار هنا بصورة بعدية وليست قبلية اي ان الانطباعات الحسية الناتجة عن الخبرة او التجربة هي التي تنطبع في العقل بصورة بعدية فتصبح صورة ذهنية او فكرة لها، ولذلك اتجه لوك في التفسير الحسي الى اعتبار

النفس في الاصل كلوح مصقول لم يتقن فيه شيء، وان التجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً(٤٣).

ويميز لوك بين نوعين من التجربة: تجربة ظاهرة واقعة على الاشياء الخارجية، اي احساس، وتجربة باطنة، واقعة على احوالنا النفسية (٤٤).

والتجربة بصفة عامة في نظر لوك تعتمد على الملاحظة التي تنقسم الى قسمين: ملاحظة خارجية وموضوعية، وملاحظة داخلية وذاتية، الاولى تعتمد على ادراك الانسان للمدركات الحسية الخارجية الموضوعية، بينما الثانية تقوم على ملاحظة الانسان لعملياته العقلية الداخلية(٤٥).

اعتبر لوك هذين المصدرين الاساسين لتكوين المادة الخام للذهن الانساني، واعتبر الافكار هي المادة الاساسية التي تقوم عليها المعطيات الذهنية المعقدة، وعلى هذا الاساس فلا يمكن ان تقوم في العقل ايه فكرة ما لم تكن صادرة عن احد هذين المصدرين، لان الاحساس بالموضوعات الخارجية يمد العقل بالأفكار عن الخصائص والصفات، بينما تستمد الافكار من المعطيات الداخلية من الذهن نفسه(٤٦).

ويقدم لوك تفسير سيكولوجي للطريقة التي تكتب بها افكارا عن طريق التجربة : ان عقل الطفل يكون خاليا تماما من الافكار، قبل ان يستقل اي احساسات، هو اشبه بصفحه بيضاء Tabuls resa لم يطبع عليها شيء، ولا يعني لوك بها سوى ان العقل يكون في تلك المرحلة خاليا من المضامين، وهذه المضامين لا يمكن ان تأتي الا من التجربة فقط، وتفسير لوك يقر للعقل بقوى فطرية بصورة واضحة، تركب وتقارن وترتبط وتقوم بتجريد من الافكار البسيطة التي يستقبلها العقل من قبل بصورة سلبية في التجربة، وبمجرد ان يكون لدى العقل مادة يؤثر فيها، يقوم بدور فعال في عملية الحصول على معرفة حقيقية(٤٧).

وبعد ان اعتمد لوك على الخبرة وجعلها الاساس الاول للمعرفة وبين انها تعتمد على تلقي الانطباعات الحسية ونقلها الى العقل فان عملية تكوين الافكار البسيطة تستند بدورها على الاحساس والتفكير معا، فالإحساس هو المصدر الاول لتكوين الافكار بكل انواعها البسيط منها والمركب(٤٨). اما الافكار المركبة فهي تلك

الافكار التي يقوم العقل بتركيبها او تأليفها من مجموعة من الافكار البسيطة الموجودة في العقل(٤٩).

وان ما يميز الافكار البسيطة انها ليست من نتاج العقل، بل العقل ينفعل بها، اما الافكار المركبة فالعقل فاعل بالنسبة لها لأنه هو الذي يركبها(٥٠) .

ويقسم لوك الافكار البسيطة الى عدة انواع حسب مصادرها وهي:-

اولاً: افكار تصل الى العقل بواسطة حاسة واحدة، وهي التي تتكون في العقل نتيجة الانطباعات الحسية التي تصل الى الذهن بواسطة احدى الحواس مثل: افكارنا عن الضوء والالوان كذلك الاصوات والنغمات (٥١).

ثانياً: افكار تصل الى العقل بواسطة اكثر من حاسة مثل: افكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون، وهذه جميعها تكونت نتيجة الانطباعات الحسية التي وصلت الى الذهن عن طريق حاستين هما البصر واللمس(٥٢).

ثالثاً: افكار تتكون في العقل بواسطة الحواس مضاف اليها التأمل الذاتي مثل الالم واللذة والوحدة والتتابع(٥٣).

رابعاً: افكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي مثل افكارنا عن الادراك والارادة (٥٤).

ويؤكد لوك على مسألة مهمة تتعلق بموضوع الافكار البسيطة، هذه المسألة هي التمييز بين الكيفيات الاولية والثانوية وادراك اهميتها بعد ان تناولها العلماء بالشرح والتحليل، ولكن لوك كان متأثرا بالاتجاه العلمي التجريبي، فقد انصب اهتمامه على البحث عن العلاقة الضرورية الموجودة بين الافكار البسيطة ومعرفة ماهية العوامل التي تؤدي الى التمييز، وان هدف لوك من البحث في التمييز بين الكيفيات هو توحيد المنهج واللغة الفلسفية بحيث تتسق مع نتائج البحث العلمي التي ظهرت بصورة ناجحة عند العلماء، ومن اجل ان يدخل منهجه التجريبي في بناء المعرفة (٥٥).

والكيفيات نوعين اساسيين هما:-

الكيفيات الاولية للمادة Primary Quelities

الكيفيات الثانوية للمادة Secondary Quelities

الكيفيات الاولية: هي الصفات التي لا تنفصل عن الجسم وتبقى ملازمة له، هذه الصفات هي: الصلابة، والامتداد، والشكل، والحركة والسكون(٥٦).

الكيفيات الثانوية: وهي ليست اولية في الاشياء بل ثانوية بمعنى انها ليست اساسية في الشيء ولا داخلة فيه او ملازمة له ولكنها مجرد قوى تحدث فيها احساسات مختلفة بواسطة صفاتها الاولية مثل الالوان والاصوات والانغام والروائح(٥٧).

المقصد الثاني

نقد لوك للفلاسفة العقليين

بعد ان اثبت لوك نقده لحجج الرئيسية التي استند اليها الفلاسفة العقليين انتقل الى تثبيت اهم المبادئ الفطرية لكي يوجه نقده لها وذلك لان معظم الفلاسفة العقليين كانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأن هذه المبادئ هي مبادئ عقلية كونها مصادر المعرفة الحقيقية الثابتة، هذه المبادئ التي وضعها لوك كانت برأيه تقسم الى قسمين رئيسيين: المبادئ الفطرية النظرية، والمبادئ الفطرية العلمية، تشمل المبادئ الفطرية النظرية على مبدأين هما مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض، وتعتبر هذه المبادئ في نظر العقليين مبادئ عقلية منطقية لأنها مستقلة عن الخبرة وموجودة في العقل الانساني قبل الولادة وتتصف بالضرورة وتكون صادقة على الدوام(٥٨).

ان اول فلاسفة المذهب العقلي الذين اعتقدوا بوجود هذه المبادئ هو افلاطون في نظرية التذكر في محاورة فيدون حيث اكد على ان النفس الانسانية ازلية موجودة في عالم اخر من عالم الاحساسات، وهو عالم الخير والجمال والحق، عالم المثل الذي عرفت فيه جميع انواع المعرفة، ثم ارتبطت بالجسد ثم اصبح الجسد بمثابة الغلالة التي حجبت عنها كل معرفة، اي ان المعرفة ليست اكتشافا لجديد بل مجرد تذكر لما كانت تعرفه من قبل(٥٩).

ان لوك في اول نقد له يرد على افلاطون قائلا " ان هناك اعتقادا راسخا عند بعض الناس بوجود مبادئ فطرية اكيده وبعض الافكار المنقوشة وهو كما لو كانت موجودة في العقل، تلقتها النفس منذ وجودها القديم وجاءت بها الى هذا العالم"(٦٠).

ان طبيعة الاتجاه التجريبي والحســـي في نظرية المعرفة جعلت لوك يرفض هذه المبادئ، فعســى الى ان يقدم تفســيرا جديدا للعقل الانســاني يتلائم مع معطيات الفلسفة والعلم، ويبتعد فيه عن التصورات الميتافيزيقية للعقل، فبين اهم التي تميز بها، كذلك اظهر علاقة العقل بالأفكار التي اعتبرها المادة الخام لبناء المعرفة لا سيما انه بين اهمية كل من الحواس والتجربة في تكوين الاسس السلمية والصحيحة للمعرفة فهو كان يدرك ان العقل وظائف لا تقل اهمية من الحواس وانه لولا القدرات الطبيعية الموجودة في الذهن الانساني لما تمت عملية المعرفة(٦١).

وســعى لوك الى تقديم صــياغة جديدة للعقل والمعرفة بلورها لتكون نظرية تهتم بدراسة طبيعة القدرات الموجودة في العقل الانساني، لذلك وجد التناقض المكشوف في اتخاذ الافكار الفطرية اساسا للمعرفة الانسانية بقوله " ان هناك تناقضا في قولنا بانه لا توجد حقائق في النفس وهي بنفس الوقت لا تدركها او تفهمها لان هذا الطبع ان كان يعني شيئا فلن يعني اكثر من وجود حقائق معينة في العقل بحيث لابد ان يدركها ويكون واعيا بها، لذلك نجد انه من الصــعب علينا ان نفهم وجود شــيء مطبوع في العقل لا يقوم العقل في ادراكه بنفس الوقت"، نقد لوك موجه الى الفيلســوف لايبنتز حيث اكد على وجود نوع من الادراك غير واضــح الا انه يتمتع بدور مهم في تكوين الافكار، الا ان لوك رفض وجود مثل هذه الادراكات لان تصوره الخاص لمعنى العقل ودوره اختلف اختلافا كبيرا عن الفلاسفة العقليين(٦٢).

ومن المبادئ النظرية الاخرى التي يعتقد لوك بها انها المبادئ او الافكار فطرية هي : مبدا الذاتية ومبدا الاســتحالة فكلاهما يعتبران من المبادئ الاســاســية، ففكرة الذاتية عند لوك تعتبر من الافكار المهمة في نظرية المعرفة لأنه اعتبرها او عمل للعقل، واول وظيفة يقوم بها الذهن الانســاني حينما تزوده التجربة الحواس بالأفكار (٦٣).

اما المبادئ الفطرية العلمية فهي على العموم تشــمل مجموعة من المبادئ الاخلاقية التي يعتقد انها فطرية وهي تمثل الايمان والعدالة، فيرى لوك ان كثير من الناس يقرون بوجود هذه المبادئ في مذاهبهم الفكرية، اما في تطبيقها بصورة فعلية فمن الواضح انهم لا يلتزمون بتطبيقها لذلك يعتقد بوجود ميول طبيعية

مطبوعة في عقول الناس منذ اللحظة الاولى لوجودهم، وادراكهم لبعض الاشياء على انها مستحبة وبعضها الاخر غير مرغوب فيها، ومن هذه الميول الرغبة في السعادة، والابتعاد عن البؤس، ويعتقد لوك انهما يوجدان في كل الاعمار ويكون تأثيرهما مستمرا ودون توقف في الحياة الانسانية، ولكن هذا ليس دليلا على انها ميول فطرية(٦٤).

كان لوك يهدف الى اثبات وترسخ الحق والخطأ في مجال المبادئ الاخلاقية الفطرية واثبات نسبيتها في الزمان والمكان والظروف ووضوح ذلك في الاعتقاد الديني واثبات عدم وجود مفهوم او تصور عام لكل من يفكر بها ولكن هناك العديد من الافكار المتناقضة، وكان ان هدف لوك من نقده القاء الضوء على مسألة مهمة وهي اعتبار مسألة الالوهية فكرة فطرية ايضا، وترسخ اهمية الوقائع التجريبية التي تتكون من الحواس والعقل واكد على ان العقل ليس سلبيا كما اعتقد الفلاسفة العقليين وانما للعقل جوانب ايجابية، ويعد الادراك او خطوة نحو المعرفة اما الخطوة الثانية فهي التذكر وهي تساعد العقل على التقدم نحو المعرفة لأنها تحتفظ بالافكار البسيطة وتخزنها في الذاكرة، اضافة الى ان للعقل قدرة تميزه عن الاحساسات وهي القدرة على التجريد واعتبرها لوك متميزة للعقل حيث تعد احدى الوظائف المهمة في بناء المعرفة العلمية وبدون هذه القدرة الموجودة في العقل الانساني فمن المستحيل عليه ان يعمل بدونها، وقد احتلت عملية التجريد عند لوك اهتمام خاص لأنها ترتبط بصورة خاصة بالأفكار الموجودة في العقل من ناحية وترتبط بكل موجود جزئي من ناحية اخرى(٦٥).

الخاتمة

١) ان المعرفة هي الادراك والوعي وفهم الحقائق عن طريق التجربة او من خلال التأمل في طبيعة الاشياء والمعرفة مرتبطة بالبديهة.

٢) مبحث نظرية المعرفة طرأت عليه تغيرات وتعديلات اثناء تطور الفلسفة عبر تاريخها الطويل فهو مفهوم يتطور دائما بذلك اصبحت ذات مكانة مركزية في الفلسفة.

٣) نظرية لوك تمثل جزء من نظرية انشـــطار الطبيعة التي وجدت في الفكر الفلسفي والعلمي، وقد قدم لوك نظريته في تفسير الطبيعة على اساس تباين الصـــفات وهذا التباين يوضـــح وجود تمييز بين الحقيقة الســـيكولوجية وبين الحقيقة الفيزيائية.

٤) يحلل لوك ان افكارنا عن الكيفيات الاولية هي الافكار متشابهة لموضوعات العالم الخارجي وان نماذج هذه الكيفيات موجودة بالفعل ومتحققة في الاجسام نفسها اي ان افكارنا تكون مطابقة لحقيقة الاشياء الخارجية، اما افكارنا عن الكيفيات الثانوية فهي افكار ذاتية غير موضـوعية لا تتطابق مع الواقع لأنها غير موجودة فيه وغير متحققة في الاشياء.

قائمة المصادر والمراجع

١) اسـلام، عزمي، جون لوك، سـلسـلة نوابغ الفكر الغربي (١٦)، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

٢) الطائي، سـهام شـيت حميد، نظرية المعرفة عند جون لوك واصـولها الفكرية، رسالة ماجستير، ١٩٨٤.

٣) رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ت: زكي نجيب محمود، م: احمد امين، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ج١، ب ت.

٤) ريفو، البير، الفلسـفة اليونانية: اصـولها وتطورها، ت: عبد الحليم محمود، م: ابو بكر زكري، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

٥) صـــــروف، فؤاد، جمهوريـة افلاطون، ت: حنـا خبـاز، دار القلم، بيروت، ١٩٢٩.

٦) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ج٢، ١٩٨٢.

٧) عباس، فيصل، الموسوعة الفلسفية، مركز الشرق الاوسط الثقافي، ج٢، ط١، ١٤٣٢.

٨) عبد الرحيم، عبد المجيد، الفلسـفة اليونانية، مكتبة النهضـــة المصـــرية، ط١، ١٩٥٨.

٩) علي عبد المعطي محمد، تيار فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣.

١٠) مبروك، امل، الفلسفة الحديثة، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

المصادر الالكترونية

١١) نظرية المعرفة /www.marefa.orgiates/INDEX.PHP، ٢٠١٦/٤/١٠.

---

[١] () امل مبروك، الفلسفة الحديثة، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص١٤٠.

[٢] () سهام شيب حميد الطائي، نظرية المعرفة عند جون لوك واصولها الفكرية، رسالة ماجستير، ١٩٨٤، ص١.

[٣] () عزمي اسلام، جون لوك، سلسة نوابغ الفكر الغربي (١٦)، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٨.

[٤] () سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق ص٢.

[٥] () عزمي اسلام، مصدر سابق ص٨-٩.

[٦] () علي عبد المعطى محمد، تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤، ص٩٠.

[٧] () عزمي اسلام، مصدر سابق، ص١١.

[٨] () علي عبد المعطي محمد، مصدر سابق، ص٩٠.

[٩] () المصدر نفسه، ص٩٠.

[١٠] () امل مبروك، المصدر السابق، ص١٤٢.

[١١] () علي عبد المعطى محمد، المصدر السابق، ص٩١.

[١٢] () عزمي اسلام، مصدر السابق، ص٢٠٦.

[١٣] () علي عبد المعطي محمد، مصدر سابق، ص٩١.

[١٤] () نظرية المعرفة /www.marefa.orgiates/INDEX.PHP، ٢٠١٦/٤/١٠.

[١٥] () جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ج٢، ١٩٨٢، ص٤٧٨-٤٧٩.

[١٦] () عزمي اسلام، مصدر سابق، ص١٨-١٩.

[١٧] () سهام شيب حميد الطائي، مصدر سابق، ص٢٤.

[١٨] () المصدر نفسه، ص٢٤.

[١٩] () عزمي اسلام، مصدر سابق، ص١٩.

[٢٠]() امل مبروك، مصدر سابق، ص١٤٧.

[٢١]() سهام اسلام، حميد الطائي، مصدر سابق، ص٢٥

[٢٢]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص١٩.

[٢٣]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص٢٥-٢٦.

[٢٤]() المصدر نفسه، ص٢٧.

[٢٥]() رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ت : زكي نجيب محمود، م: احمد امين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ص٢٤٣.

[٢٦]() المصدر نفسه، ص١٤٨.

[٢٧]() فؤاد صروف، جمهورية افلاطون، ت: حنا خباز، دار القلم، بيروت، ١٩٢٩، ص٢٠٣.

[٢٨]() رسل، المصدر السابق، ص٢٠٥.

[٢٩]() المصدر نفسه، ص٢٠٥.

[٣٠]() ريفو البير، الفلسفة اليونانية اصولها وتطورها، ت: عبد الحليم محمود، م: ابو بكر زكري، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ب ت، ص١٦٦.

[٣١]() عبد المجيد عبد الرحيم، الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٨، ص١٤٣.

[٣٢]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص٣٠.

[٣٣]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص ٧٢.

[٣٤]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص٣٩.

[٣٥]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص ٧٣.

[٣٦]() اسلام عزمي، مصدر سابق، ص٣٩.

[٣٧]() سهام شيب حميد الطائي، مدر سابق، ص٧٣.

[٣٨]() اسلام عزمي، مصدر سابق، ص٤١.

[٣٩]() سهام شيب حميد الطائي، مصدر سابق، ص٧٤.

[٤٠]() المصدر نفسه، ص٧٥-٦٧.

[٤١]() امل مبروك، الفلسفة الحديثة، مصدر سابق، ص١٤٧.

[٤٢]() عزمي اسلام، جون لوك، مصدر سابق، ص٤٤.

[٤٣]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص٧٨.

[٤٤]() فيصل عباس، الموسوعة الفلسفية، مركز الشرق الاوسط الثقافي، ج٥، ط١، ١٤٣٢، ص٢٣٩.

[٤٥]() عزمي اسلام، جون لوك، مصدر سابق، ص٥٢.

[٤٦]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص٨٩.

[٤٧]() فيصل عباس، الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، ص٢٣٩.

[٤٨]() علي عبد المعطي محمد، تيارات فلسفية حديثة، مصدر سابق، ص٩٧.

[٤٩]() امل مبروك، الفلسفة الحديثة، مصدر سابق، ص١٤٨.

[٥٠]() علي عبد المعطي محمد، مصدر سابق، ص٩٧.

[٥١]() امل مبروك، مصدر سابق، ص٩٨.

[٥٢]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص٥٩.

[٥٣]() فيصل عباس، مصدر سابق، ص١٢٩.

[٥٤]() امل مبروك، مصدر سابق، ص١٤٨.

[٥٥]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص٨٣.

[٥٦]() فيصل عباس، مصدر سابق، ٢٤٠.

[٥٧]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص٦٦.

[٥٨]() سهام شيب الطائي، مصدر سابق، ص ١٠٠.

[٥٩]() امل مبروك، مصدر سابق، ص ١٤٢-١٤٣.

[٦٠]() سهام شيب حميد الطائي، مصدر سابق، ص١٠١.

[٦١]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص٣١-٣٢.

[٦٢]() سهام شيب حميد الطائي، مصدر سابق، ص١٠٢.

[٦٣]() عزمي اسلام، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٤.

[٦٤]() سهام شيب حميد الطائي، مصدر سابق، ص١٠٤.

[٦٥]() سهام شيت حميد الطائي، مصدر سابق، ص ١٠٤-١٠٥.